

قضايا الثقافة

بيروت التراثية تحت الانفجار
من يحمي التاريخ والثقافة والحضارة؟

تحد كبير يقف امامه لبنان اليوم في اعادة ترميم ذاكرته الجمعية، من خلال البيوت والمباني التراثية الـ650 التي تضررت جراء انفجار مرفأ بيروت. الجميزة هي المنطقة الاكثر تضررا جراء قربها من مكان الكارثة، وهي ايضا التي تحوي مع مار مخايل اكبر عدد من المباني التراثية التي تعود الى العهد العثماني. انها شاهدة على تاريخنا السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، فكيف سيرمم لبنان هذه الذاكرة وهذا الارث؟



الجميزة القديمة.

"حي ذو طابع تراثي"! لافتة تستقبل الزائر عند مداخل الجميزة من جهاتها المختلفة، لتأخذه في رحلة تاريخية وحضارية تتجلى في ابنية هذه المنطقة التي شكلت معلما سياحيا اساسيا في السنوات الاخيرة، ووجهة مفضلة بالنسبة الى العرب والاجانب. معارك كثيرة خاضتها هذه المنطقة حفاظا على ذاكرتها العمرانية التي تمزج بين الطرازين العثماني والفرنسي. صمدت في عز الحرب بعدما كانت خط تماس يُدك بالنار والحديد من الجهات كلها، حتى حملت مبانيها التراثية اثار الرصاص الذي اخترق احشاءها ونوافذها وجدرانها. نجت من الحرب باقل اضرار ممكنة، لتجد نفسها في مواجهة برابرة زمن السلم. هكذا، هجم المستثمرون والسماسرة والمطورون العقاريون على المنطقة، وقمت التضيحية بالكثير من الابنية التراثية التي علت مكانها ابراج شاهقة شوهدت طابع الحي المعماري. مع ذلك، صمدت الجميزة، ونجح الناشطون والمنظمات المعنية في حماية التراث، في كبح جشع المستثمرين عبر استحداث قوانين تحمي الابنية ولو انها ليست كافية بحسب هؤلاء... الى ان جاءت الكارثة الكبرى. كان لانفجار مرفأ بيروت يوم الرابع من آب، وقع الزلزال على الجميزة. هذه المرة، طالت شظاياها كل زاوية وعمارة، فسقط بعضها سقوطا مدويا على رأس قاطنيتها، او انهارت شرفات بعضها الاخر، او تهشمتم نوافذها، او بقرت ابوابها... انه الخراب الكامل كأننا في يوم القيامة او امام فيلم من افلام الخيال العلمي.

في العالم العربي على يد مارون النقاش، ابيدت بتاريخها وذاكرتها. اي نكبة اكبر من ذلك؟ لعل العزاء الوحيد وسط كل هذا الظلام ان الاصوات علت سريعا انقاذا للذاكرة ولهذه الابنية التي تشكل رأسمالا سياحيا وثقافيا بعدما اتى زمن



نقطة على السطر

التحدي العمراني في حجم الكارثة

"قومي من تحت الموج الازرق، يا عشتار
قومي كقصيدة ورد... او قومي كقصيدة نار
لا يوجد قبلك شيء... بعدك شيء... مثلك شيء
انت خلاصات الاعمار".

في زمن آخر، في كارثة اخرى، كتب نزار قباني قصيدته الشهيرة "الى بيروت الانثى مع حبي" المعروفة بعنوان آخر هو "يا ست الدنيا يا بيروت"، وقد غنتها لاحقا ماجدة الرومي من الحان جمال سلامة.

قبل نزار كتب محمد مهدي الجواهري يرثي المدينة ويؤاسيها ويستنهضها:
"جلل مصابك يا بيروت بيكينا
يا اخت بغداد ما يؤذيك يؤذينا
ماذا اصابك يا بيروت دامية
والموت يخطف اهليك واهليننا؟".

ها هي كلمات الشعارين الكبيرين، السوري والعراقي، تخرج اليوم من الذاكرة كأنها تنطبق حرفا بحرف على الكارثة التي تعيشها العاصمة اللبنانية، بل كل لبنان، منذ مساء الرابع من آب 2020. ذلك ان بيروت انهدت سبع مرات، واعيد بناؤها. كأنها الفت الكوارث والحروب، عبر تاريخها المتعرج الطويل، كأنه مكتوب عليها ان تجتاز المأساة كل مرة، وتقوم من تحت الردم، وتنبعث من رمادها.

لكن هذه المرة قد تبدو لنا، من قلب المأساة، مختلفة عن كل سابقتها، من الزلزال الذي ابتلع مدرسة الحقوق الرومانية الشهيرة منتصف القرن السادس للميلاد، الى الحرب الاسرائيلية على لبنان صيف 2006. هذه المرة يأتي انفجار المرفأ، ونتائجه الكارثية التي توازي حرب سنوات عدة، في ثوان قليلة، ضمن ظروف وطنية واقليمية صعبة، متوترة، مفتوحة على المجهول. وضمن ظروف داخلية سوداوية، على المستوى الاقتصادي والمالي والنقدي والسياسي. ما يجعل البلد اكثر هشاشة في مواجهة تحديات النهوض والانبعث واعادة الاعمار. في نهاية الحرب الاهلية كان هناك الامل، وكانت هناك المال... اليوم ليس امامنا الا المناخات القائمة والافق المسدود. مع ذلك يجب ان نعاند.

اليوم نخاف على التراث العمراني من الاندثار. نخاف ان تفقد بيروت آخر معالمها، آخر ملامحها، نبضها وروحها، فتصبح مدينة معقمة، تغزوها العمارات العصرية الفخمة المستنسخة عن مدن العالم، والتي لا يملكها اهل المدينة في معظم الحالات. ترافق احياء ومربعات وشوارع بلا لون ولا طعم، بلا هوية ولا ذاكرة.

من يحمي ذاكرة المدينة؟ من يحرص على تدعيم وترميم وحماية عشرات الابنية التراثية التي تمتد من البيت العربي التقليدي، ثم المرحلة الكولونيالية، الى العمارة الحديثة في الخمسينات والستينات؟ من يحمي المدينة، واهلها الذين ازدادوا فقرا، من غزو "البرابرة"؟ نقصد فئة محددة من التجار والمطورين العقاريين والمستثمرين الذين ينقضون كالكواسر على المباني القديمة، في غياب قوانين صارمة تلجمهم، يشترتون ويهدمون ويشيدون عمارات شاهقة، فخمة انما بلا روح، ليس من يسكنها او يشتري شققها حتى اشعار آخر.

نعم هذه مسؤولية الدولة التي يحاول الكل، في لحظة الازمة، اضعافها وتقويض اساساتها. لهذا نحن في حاجة الى دولة قوية وعادلة، حريصة على حفظ التراث المههد بالاندثار.

سمير مراد

لنتوقف قليلا عند الخصوصية الهندسية لمباني الجميزة ومار مخايل والاشرفية بشكل عام. اشتهر المهندس فضل الله داغر عضو جمعية "اسداد" جمعية تشجيع حماية المواقع الطبيعية والابنية القديمة في لبنان) بنضاله الطويل النفس من اجل انقاذ البيوت والمباني التراثية في بيروت، هو الذي يقع بيت عائلته التراثي (شيد في العشرينات من القرن الماضي) في الجميزة.

في مقابلة مع "الامن العام" يقول: "شارع الجميزة تاريخيا هو الطريق التي توصل من بيروت الى طرابلس، اي انه المخرج الشمالي لبيروت. في عام 1830، كانت الجميزة تقع تحت سيطرة المصريين، يوم اقتحم ابراهيم باشا سوريا ولبنان في محاولة للاطاحة بالامبراطورية العثمانية. في هذا الوقت، وسع مرفأ بيروت، كي يستطيع نقل السلاح والجنود من الاسكندرية الى العاصمة اللبنانية. وفي عام 1840، عاد العثمانيون مع الانكليز وسيطروا مجددا على البلد، وصارت بيروت مدينة جديدة نسبيا لان مرفأها توسع كثيرا حينذاك حتى اضى أهم من مرفأ صيدا وطرابلس اللذين كانا الاهم قبل ذلك. بدءا من ذلك الوقت، صارت العمليات التجارية جليا تمر عبر مرفأ بيروت الذي اضى كبيرا يستطيع استيعاب سفن كبيرة وضخمة. كانت البضاعة التي تنتقل من الشرق عبر المتوسط في اتجاه اوروبا، او العكس، تمر حكما ببيروت. في عام 1848، فتحت طريق ثالثة بعد طريق الجميزة التي توصل الى طرابلس، وطريق البسطة التي توصل الى صيدا. كانت تلك الطريق هي طريق الشام التي تقع في المنتصف وقد زادت من توسع لبنان اقتصاديا. اذ ان البضاعة والعمليات التجارية كانت تدخل بيروت للذهاب الى سوريا والعراق، ما جعل العاصمة اللبنانية تتوسع وتزدهر. هكذا، انزلوا سور بيروت، اي ان المدينة الاثرية القديمة امتدت خارج حدودها التاريخية القديمة، وصارت الطريق الرومانية التي كانت توصل الى طرابلس اي شارع الجميزة ومار مخايل، الخط الجديد لامتداد المدينة، مثلما ان البسطة وزقاق البلاط وتلال زقاق البلاط صارت ايضا امتدادا للمدينة. في عام 1860، اقيم نظام جديد في لبنان هو نظام المتصرفية في الجبل وصارت بيروت ولاية، ما يدل على اهتمام عثماني بمنح العاصمة قوة ونفوذ كبيرين، لان ذلك ادى الى ازدهار اقتصادي من خلال المرفأ وفتح طريق الشام، ما افاد اهالي

في الاستعادة الكاملة للتراث المتضرر. واعلنت مواصلة العمل المشترك مع لبنان بهدف "حماية تراثه الثقافي الفريد والحفاظ عليه".

نقابة المهندسين في لبنان انخرطت في عمل تطوعي ضخم. منذ اليوم الثاني للكارثة، فتحت باب الانتساب امام مهندسي لبنان من خلال تعبئة استمارات الكترونية، فانضم اليها عدد كبير من المهندسين من مختلف الاختصاصات ابدوا استعدادهم للمشاركة في المسح والكشف الاولي عن الابنية. المهندس امثل حكيماً، هو احد هؤلاء. هو عضو في لجنة السلامة العامة في النقابة، وفي الوقت نفسه عضو في احدى الفرق التي تجري مسحاً للمنطقة المنكوبة. يقول لـ"الامن العام": "انطلقنا في المسح الميداني، ووضعت الية لجمع المعلومات بين كل الاطراف التي تشغل على الارض، اي بين الهيئة العليا للاغاثة وقيادة الجيش، وبلدية بيروت ونقابة المهندسين. حالياً، الفرق التي شكلتها النقابة، بدأت الكشف ومعاينة كل المباني بناية بناية وعقارا عقارا. وتملك خرائط



الجميزة بعد انفجار مرفأ بيروت.

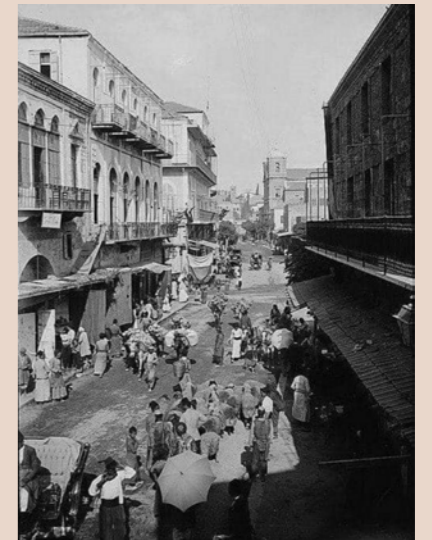
المنظمات الدولية والمحلية المعنية بالحفاظ على الارث المعماري. اذ وقعت 27 هيئة من مختلف انحاء العالم من بينها الاونيسكو، بيانا تضامنيا مع لبنان تعهدت فيه بذل جهودها للمساهمة

مع انفجار مرفأ بيروت الذي تسبب في تضرر 640 بناء تراثيا في الجعيتاوي، والمدور والاشرفية وزقاق البلاط والظريف والباشورة وفق المدير العام للآثار في وزارة الثقافة في لبنان سركيس خوري، تجندت

عام 1850 لغاية عام 1950. لدينا عائلات عاشت في هذه البيوت منذ ذلك الحين، اذ توارثها الابناء ولم يتركوها حتى خلال الحرب. اذن، ما يميز هذه المناطق انها لا تتعلق فقط بالاحياء التراثية التي تقتصر على العمارة، بل تمتد الى النسيج الاجتماعي الذي شكل هذه الاحياء، فبدون هذا النسيج لا قيمة للعمارة اصلا. اضافة الى اهالي هذه المناطق، انضم اليهم لاحقا جيل جديد كرد فعل على الذي حصل في وسط بيروت التي استحوطت مدينة اشباح لانها لا نرى فيها مواطنين لبنانيين، ولا نرى محلات او اشياء تعكس ثقافتنا نحن. ثقافتنا اليوم تتجلى في الجميزة وزقاق البلاط والاشرفية، وهذه المناطق التي تتميز باختلاط اجتماعي وهندسي معماري واقتصادي بين الاعمال الحرفية والتصميم واقتصاد الخدمات والتجارة الصغيرة. كل شيء موجود في هذه الاحياء مع الاجيال التي توارثت هذه البيوت ومعها العلاقات التي جمعت اهلها على مر السنوات تماما كما في القرية. احياء تعكس الحياة في مقابل اللاحية في وسط بيروت".

ضمن طراز واحد ومواد واحدة هي الحجر الرملي الذي كان يأتي من المصيطبة، في حين ان المواد الاخرى كانت تأتي من الخارج".
يضيف داغر: "مثلا، بلاط الارض كان خاما ابيض يأتي من ايطاليا، وشاحط القرميد من مرسيليا الفرنسية. وهذا الطراز يشبه بعض الشيء بيوت القسطنطينية والبندقية، لكنه تميز بطراز معين هو البيت اللبناني. تطورت هذه الاحياء من عام 1860 حتى عام 1920، خلال اواخر الفترة العثمانية. وخلال الانتداب الفرنسي، دخلت الابنية الاسمنتية على الخط لكن على الطراز ذاته، اي القناطر الثلاث التي مال شكلها الى النمط الغربي، على شكل بنايات صغيرة من اربع طبقات كحد اقصى ومبنية من الحجر والاسمنت. مناطق مار مخايل وما فوقها اي الجعيتاوي، وفسوح والبدوي تطورت في زمن الانتداب الفرنسي ما بين عامي 1940 و1950. وهذه المناطق مميزة اليوم لانها تحوي اكر كثافة عمرانية تراثية في بيروت، فنحن نتحدث هنا عن مئة عام من التراث من

بيروت وهؤلاء الذين جاؤوا اليها. شهدت تلك الحقبة ازدهارا عمرانيا كبيرا ومهما، فذلك المجتمع الذي كان اساسا متألفا من التجار الذين ينتمون الى طائفتي السنة والروم الاورثوذكس، انضم اليهم اهل الجبل، وشيدوا بيوتا جديدة. بيوتهم القديمة كانت على الطراز الدمشقي او الحلبي، مما يعني بيوتا منظمة حول ساحة داخلية ومقفلة على نفسها، على الطراز الشرقي. اما البيوت الجديدة، فكانت نموذجا جديدا دخل بيروت، هو طراز منفتح على البحر المتوسط وعلى الثقافة الغربية بات يسمى اليوم "البيت اللبناني"، لكن وقتذاك كان يسمى البيت البيروتي لانه انطلق من بيروت. هو عبارة عن شكل مربع مع بهو في الوسط وثلاث قناطر على واجهته الشمالية، وشاحط قرميد على ظهره. هكذا، تم تعديل كل بيوت بيروت لتكون على شاكلته، وبدأ الكل يبني منزله على هذا الطراز، خصوصا في مناطق الظريف وزقاق البلاط والباشورة والاشرفية والجميزة ومار مخايل. طبعاً، كانت احجام هذه البيوت تتفاوت، لكنها ظلت



صار فيك تدفع بالبطاقة المصرفية بكل مراكز الأمن العام

الآن أصبح بإمكانك تسديد مدفوعاتك في مراكز الأمن العام كافة بواسطة بطاقتك المصرفية الصادرة عن أي مصرف في لبنان والعالم، أكانت فيزا أو ماستركارد. وتهدف هذه الخدمة الجديدة والمميزة الناتجة عن تعاون ما بين بنك لبنان والمهجر والمديرية العامة للأمن العام إلى تحسين الأمن وتطوير الإدارة.



بنك لبنان
والمهجر
راحة البال

شكلنا مجموعة في "المؤسسة الوطنية للتراث"، وأنا عضو فيها امثل نقابة المهندسين، من اجل فتح حساب مصرفي لتلقي الاموال التي ستساهم في اعادة ترميم وبناء التراث العمراني. هذه المجموعة تضم اشخاصا واختصاصيين كفؤين ونزيهين، كما هناك تدقيق في الحسابات من شركة "ايرنست اند يونغ" العالمية كي تتم مراقبة كل عمليات الدفع والشراء بشكل شفاف وواضح وعلني. الى جانب فرنسا، هناك منظمة الاونيسكو والبنك الدولي وسويسرا وغيرها، وأأمل في ان نرى النتائج".

صحيح ان 650 مبنى تضرر، لكن داغر يشير هنا الى انها لم تضرر كلها بطريقة جذرية وخطرة. يوضح: "هناك ستون مبنى تشكل خطرا على السلامة العامة، اذ تحتاج تدعيما سريعا، وحماية لاسطحها قبل الشتاء".

عن الابنية التراثية التي تدمرت كليا، يوضح ان هناك قرارا من محافظ بيروت ومديرية الآثار في وزارة الثقافة ومن مديرية التنظيم المدني باعادة بناء هذه البيوت كما كانت عليه في الماضي. ويشدد على "اننا في لبنان نتمتع بالقدرة والكفاية للقيام بهذه المهمة وقد نستعين بخبراء من فرنسا في حالة القصور القديمة كقصر سرسق، لان فرنسا رائدة في هذا المجال".

كم من الوقت ستحتاجه عملية الترميم؟ يجيب: "اذا توافر الدعم المالي، يمكن الانتهاء من ترميم الابنية الاسمنتية في غضون ثمانية اشهر لغاية السنة. اما في خصوص الابنية الحديثة التي تدمرت كليا، فعملية اعادة البناء قد تستغرق حتى حدود سنتين. اما التراثية، اي ما يسمى البيوت العثمانية التي تعود الى الفترة الممتدة من عام 1860 حتى عام 1920، فهنا المشكلة الكبرى، لان هذه الورشة قد تستغرق ثلاثا او اربع سنوات، لان بعد عملية التدعيم وحماية سطوح هذه البيوت، يجب اعادة الحيطان الى وضعيتها الاصلية، فهناك حيطان تفسخت، وازيحت من مكانها. نحتاج ايضا الى اعادة تثبيتها وتقويتها، كما تثبيت هيكل المبنى وتعزيزه. وبعد ذلك، تنتقل الى عملية ترميم ووضع الشبائيك، ثم هناك العملية الداخلية اي العمل على اعادة سقوفيات الجفصين المشغول والدهان، واعادة الرسم على الحيطان. اذا اردنا ان نعيد هذا التراث الى ما كان عليه، فهذا يستغرق طويلا".

س. م

في هذه الجريمة، وتهدمت بيوت كثيرة ايضا، وهذا مؤسف، انما نحن نطرح الصوت منذ اكثر من ثلاثين سنة حول اهمية الحفاظ على الابنية والاحياء التراثية وعلى نسيجها، والدولة لم تكن ترد علينا. نحن اليوم في انهيار اقتصادي والناس فعلا لا يملكون المال للترميم، واساسا هناك اشكاليات كثيرة حول البيوت القديمة، انما للمرة الاولى في تاريخنا المعاصر، ارى فرصة للتقدم وتغيير الطريقة التي كنا نشغل فيها على المدينة. بدلا من ان يقوم المتمدن بهدم كل شيء وتشييد بنايات شاهقة تلامس السماء بجشع مذهل، علينا ان نحافظ على النسيج الاجتماعي والعمراني. وللمرة الاولى، هناك تغيير على الارض، فالمجلس الاعلى للتنظيم المدني وضع اخيرا المناطق المنكوبة قيد الدرس، وهذا امر مهم جدا، والخطوة هذه ليست ضد الشعب، بل ضد الاستثمارات العشوائية. ينبغي لنا، من خلال دراسة واقعية دقيقة، المحافظة على التراث المعماري القديم وايضا الحديث، اي ذلك الذي يعود الى الخمسينات والستينات، فهو ايضا تراث بمعنى ثقافة مثل مبنى شركة الكهرباء في مار مخايل الذي يعكس صورة لبنان المزدهر والمنفتح، لبنان فؤاد شهاب الذي كان يبني على اسس جديدة ومتمينة".

اما في خصوص الجهود العالمية لنجدة التراث في بيروت، فيعلق داغر: "فرنسا تسعى بقوة للمساعدة والمساهمة في الاعمار، من خلال مؤسسات وجمعيات تتمتع بالشفافية التامة. نحن

موصولة بالاقيار الصناعية للحصول على كل التفاصيل المتعلقة بكل عقار. المسح الاول يرتبط حصرا بالسلامة العامة من بعض الابنية المتضررة او غيرها، بالاضافة الى معاينة متانة الهيكل المباني". ماذا في خصوص الاخبار التي انتشرت عن سمسارة ومستثمرين يحاولون شراء بيوت الناس المنكوبة؟ يؤكد فضل الله داغر على هذا الامر، مضيفا ان شخصا اتصل به عارضا شراء بيته التراثي في الجميزة. حين نذكره باعلان وزير الثقافة في الحكومة المستقيلة عباس مرتضى عن منع اجراء اي معاملة بيع تتعلق بالعقارات المتضررة، ومنع تسجيلها في الدوائر العقارية الا بعد الانتهاء من الترميم، وبعد موافقة وزارة الثقافة، يعلق فضل قائلا: "قرار الوزير ليس له نطاق قانوني، فنحن نعيش في نظام اقتصادي حر، حيث لا يمكنك منعي من الشراء او من البيع، واذكر هنا انه في الماضي، منع احد الوزراء هدم الابنية التراثية، الا ان المعنيين توجهوا يومها الى مجلس شورى الدولة وقدموا شكوى وربحوها. في النهاية وبحسب القوانين السائدة، سيكون الحق مع المالك لا الدولة. لذا، هنا تكمن الاشكالية، ويجب استحداث قوانين جديدة لحماية التراث". لكن ماذا يفعل المالكون والمستأجرون القدامى الذين لا يستطيعون تحمل كلفة ترميم او اعادة بناء بيتهم التراثي؟

يجيب داغر: "صحيح، نحن كجمعية "ابساد" نعمل اليوم على الارض لاقناع الناس وتوعيتهم حول عدم التخلي عن املاكهم. صحيح ان اناسا لقوا حتفهم



المهندس
فضل الله
داغر عضو
جمعية
"ابساد".